

التصوف والتشيع في محافظة دير الزور السورية

د. سعيد العبد الله - سوريا

لا أبالغ إن قلت إن محافظة دير الزور هي معقل الطرق الصوفية المغرقة بالتصوف المبتدع في سوريا، الذي تحاربه الصوفية العلمية، **وقد شكلت المحافظة بيئة خصبة لانتشار نوعين من التيارات الصوفية:**

الأول: التيارات المتصوفة، وخاصة تلك المغرقة في البدع، كضرب الشيش، وأكل الأفاعي، ومضغ الزجاج، والإكثار من الأناشيد الشركية، التي تركز بمعظمها على مديح آل البيت، ووصفهم بصفات لا تتسق مع الرؤية الشرعية، أو مديح للجيلاني، وغيره، بل في بعضها تأليب على أهل السنة، كاستحضارهم لمشهد مقتل سيدنا الحسين رضي الله عنه.

الآخر: التيار الصوفي المتشيع، حيث أصبحت محافظة دير الزور في ظل سيطرة النظام النصيري بيئة خصبة للأنشطة التشييعية المدعومة من إيران، التي تبنّاها النظام وسهّل عملها، وأقيمت حسينيات عديدة، حتى أصبحت دير الزور عاصمة التشيع في سوريا، وسنشير إلى النشاط التبشيري الشيعي وصوره ومجالاته.

والجدير بالذكر أن نشاط التشيع استهدف بالأساس البيئة المتصوفة، لسبب رئيس هو أن النشاط السني السلفي كان ضعيفًا ومحظورًا في عهد النظام البائد «الأب والابن»، حيث تم زج غالبية المصلحين السلفيين في سجون تدمر وصيدنايا، «بينما في المقابل يقوم بدعم الصوفية، والطرق الصوفية، وبخاصة الخزنوية النقشبندية، حيث إنه قام بتسليمها الأمور الشرعية وإدارة المساجد وتعيين الأئمة، وذلك بسبب أنهم لا يمانعون من وجود الشيعة أو التشيع»[1].

ويمكن رصد مظاهر التشيع في دير الزور وعلاقته بالتصوف بعدة أمور مهمة منها:

أولاً: كانت مرحلة ما قبل الثورة السورية عام ٢٠١١م مرحلة نشاط ظاهر وواضح للتشيع في دير الزور، ثم ومع انطلاق الثورة المباركة سيطر الثوار على ريف المحافظة فخفَت التشيع مع زوال سيطرة النظام، لكنه عاد إلى الواجهة مع تقدم النظام وسيطرته على مناطق انتشار تنظيم داعش، فعاد نشاط التشيع، وخاصة مع دخول الميليشيات الشيعية إلى دير الزور، كلواء الباقر الذي انتشر في البوكمال والميادين، وكـ«زينبيون» و«فاطميون» وغيرها من الميليشيات التي انتشرت في البادية المحاذية لحمص وحماة.

١ - التشيع في دير الزور، مراحل التشيع منذ البدايات وحتى الوقت الراهن، ملف من إعداد شبكة دير الزور ٢٤، ص ٢٦.

ثانيًا: في تقارير أعدتها وسائل إعلامية عديدة، تُعد مدينة حطلة في ريف دير الزور مركز التشيع، حتى صُبغت المدينة بالصبغة السوداء، للأعلام الشيعية، ففي «عام ٢٠١٧ حين سيطرت الميليشيات الإيرانية على القرية مجددًا، بدأت بصبغ القرية بالصبغة الشيعية الخالصة، فحولت عددًا من مساجد السنة إلى حسينيات وأخذت تبني أخرى جديدة، وترفع عليها الرايات الشيعية»[٣]، وقد تم رصد صور «لمشروع توسعة حسينية «الملالي» في حطلة، التي أشرف على بنائها وتوسعتها المعمم ياسر حسين الرجا بتمويل ودعم إيراني»[٣]، «ولم تكن حطلة على الضفة الشرقية لنهر الفرات هدفًا إيرانيًا جديدًا، بل كانت كذلك منذ أيام حافظ الأسد، وكانت بداية مرحلة جعلها نقطة ارتكاز لتشييع المنطقة الشرقية عمومًا، وكانت البداية مع المعمم الشيعي الأول بدير الزور ياسين المعيوف، وظهر ذلك جليًا بعد افتتاحه في حطلة فرعًا لجمعية «الإمام المرتضى» التي تعود ملكيتها لجميل الأسد»[٤].

ثالثًا: من الشخصيات التي عملت على نشر التشيع في دير الزور: ياسين المعيوف «أبو مصطفى»، وهو رئيس فرع جمعية الإمام المرتضى التي نشرت التشيع في دير الزور والحسكة والرقة، وذلك بعد تلقي دورات تدريبية في إيران بهذا الخصوص، وقد «عمل المعيوف منتصف الثمانينيات على استقطاب الأهالي البسطاء الذين كانوا يعيشون حياة الفقر بإغرائهم بالمال، حيث كان يقدم لمن يعتنق المذهب الشيعي راتبًا شهريًا يقدر بـ ٥٠٠٠ ليرة سورية آنذاك، بدعم مالي من إيران ومن شخصيات شيعية في دول خليجية، وكان لا بد له من الاستعانة بآخرين يثق بولائهم، ليسطع نجم المعمم المتشيع حسين الرجا الذي يعدّ من أبرز الشخصيات الداعية إلى التشيع، ليس في دير الزور فحسب، بل في سوريا عمومًا ولا سيما بعد انطلاق الثورة السورية»[٥].

وقد أدركتُ شخصيًا حركة التشيع بعد عام ٢٠٠٠ في دير الزور والرقة، والرواتب التي كانت تقدم لهم بشكل كبير جدًا، وتم إغراء الأسر الفقيرة بالمال، وكان النشاط صريحًا في وضح النهار، بل كانت تتم الدعوة له من خلال المساجد في مختلف المناطق.

٢- مقال: قرية حطلة بدير الزور: عاصمة التشيّع شرق سوريا.. أين وصل مشروع نظام الملالي؟، أحمد المصطفى، ٢٠٢٢/١/١٦، قناة أورينت. وقد تشيع والده حسين الرجا سنة ١٩٨٤م.

٣- المرجع السابق.

٤ - المرجع السابق.

٥ - المرجع السابق.

وأول من رفع الأذان الشيعي في حطلة: إدريس السلامة وطارق المعيوف في حسينية جعفر الصادق، التي كانت مسجدًا لأهل السنة.



رفع الأذان الشيعي في دير الزور لأول مرة

رابعًا: انتشر التشيع في ريف المحافظة ومركز المدينة، إلا أنه بدا واضحًا وقويًا في البلدات الآتية: حطلة، ومراط، والصعوة، وزغير جزيرة، والكبر، وكلها في الريف الغربي للمحافظة، وكذلك في القورية، حيث بنوا مزارًا فيها، وكذلك في الصور والبوكمال والميادين وبلدة بقرص وصبيخان، والشميطية، والموحسن، إلا أن المركز كان حطلة.

خامسًا: نشط حزب الله اللبناني في المحافظة خلال سني الثورة، وجنّد عشرات الآلاف من أبناء المحافظة في صفوفه لمقاتلة فصائل الثورة وتنظيم داعش، وقد أغراهم بالرواتب، ومنهم من تشيع وأعلن انضمامه إلى الحزب بشكل رسمي، وأسسوا حزب الله السوري، «بقيادة طارق ياسين المعيوف عسكريًا، ومحمد أمين حسين الرجا سياسيًا الذي تبوأ منصب عضو مجلس الشعب التابع لنظام أسد منذ عام ٢٠١٦، مكافأةً لما قدمه من خدمات لإيران وميليشياتها منذ اندلاع الثورة السورية»[٦].

سادسًا: أسست إيران المركز الثقافي الإيراني في دير الزور، وقام هذا المركز بتغيير أسماء المساجد وغيرها إلى أسماء شيعية أو عامة، وكل ذلك كان يتم تحت أنظار مديرية الأوقاف، ومنها مسجد عمر بن الخطاب في الميادين حيث سموه الرضوان، ومسجد عائشة سموه أهل البيت في بلدة بقرص، وسموا مسجد عثمان بن عفان بمسجد الإمام الحسين في بلدة صبيخان، «ويعتبر المركز الثقافي الإيراني في الميادين الأهم في استقطاب السكان للتشيع والتجنيد، لأنه يقدم نشاطات ومكافآت مالية بشكل دوري، بالإضافة إلى تنسيقه المباشر مع

٦- المرجع السابق.

بعض الجهات الأمنية التابعة للحكومة السورية... وأزالت المرجعية الشيعية عدة لافتات تحمل أسماء صحابة وأنبياء من المساجد والمدارس في الريف الشرقي لدير الزور»[٧].


الرايات السود الشيعية في دير الزور

سابعًا: دخلت إيران إلى المنطقة من باب الانتساب العشائري إلى آل البيت، فقامت بتسليم بعض الناس مشجرات أنساب مزورة تدّعي أنهم من آل البيت حسينيين أو حسنيين، فحركوا هذه النزعة عند البكَّارة، والبو سرايا[٨].

ثامنًا: بنَت إيران حسينيات عديدة لعبت دورها في نشر التشيع منها: حسينية آل البيت في بلدة جديد عقيدات، وكان يشرف عليها حسين الحاضر، وحسينية علي الهادي في حويجة صقر وكانت تشرف عليها الحوزة الزينبية، وحسينية موسى الكاظم وأشرف عليها يوسف كردوش في قرية أبو خشب، وحسينية الرسول الأعظم في بلدة الصعوة، وكذلك حسينية الحجة المنتظر بإشراف رابح عايد شاهين، وحسينية فاطمة الزهراء في قرية زغير جزيرة، وكذلك حسينية المهدي في قرية زغير الدير، وكان يشرف عليها أحمد عايد الوكاع، عدا المقامات والمزارات كمزار عين علي في القورية[٩]، كما «أن الوقف الشيعي في مدينة البوكمال يُدير مسجد الكراج المعروف باسم دوار الطيارة وجامع عبدالله بن عباس، فيما افتتح الحرس الثوري الإيراني منذ عام ٢٠١٧، حسينيات عديدة في بلدة حطلة، وسيطر على قبة الإمام علي في بلدة السويعية ومزار عين علي في بادية القورية، فيما عمل الوقف الشيعي على مصادر الأراضي التي تقع بالقرب من مزار عين علي، بهدف بناء استراحات وفندق لاستقبال الحجاج»[١٠].

واقع المشهد بعد انتصار الثورة السورية:

على الرغم من أن التشيع فرَّخ في مناطق التصوف، وأخذ حظه منهم، ووجد إليهم مدخلاً بحجج وذرائع شتى، إلا أن الله سبحانه وتعالى قدَّر وشاء أن تكون نهاية هذا المشروع الغريب مع الثورة السورية، وبالتالي زالت وبادت كل الآثار السلبية للتشيع، وعاد المتشيعون إلى مذهبهم السني مع زوال الميليشيات الشيعية، ومن بقي على تشيعه غادر المنطقة إلى لبنان أو غيرها، وتم إعادة الحسينيات إلى أصولها مساجد يذكر فيها اسم الله سبحانه وتعالى، ويُعظم فيها الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

ونستطيع أن نؤكد ونحن اليوم في أواخر عام ٢٠٢٦ أن دير الزور سنية بشكل كامل، والغلبة فيها للمنهج السلفي ولله الحمد، لأن التصوف فقد أثره وتأثيره مع زوال النظام وأدواته، بل فقد جمهوره، ومن بقي يؤمن به من عوام الناس عزلوا أنفسهم عن الحراك الديني والدعوة إليه، لأن المجتمع أعاد هيكلة نفسه زمن الثورة، من خلال الأفكار والمناهج التي مرت به، فعرف تهافت المنهج المبتدع من قبل الطرق الصوفية، وأبغضه الناس بعد أن شكل أرضية لانتشار الأفكار الشيعية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن جمعية الإمام المرتضى التي أسسها جميل الأسد منذ الثمانينيات من القرن الماضي لخدمة التشيع في سوريا عامة، والمحافظات الشرقية (الحسكة ودير الزور والرقة) خاصة، لم ينتهِ دورها على أرض الواقع بعد تحرير سوريا، بل استمرت بغطاء من بعض الروابط الصوفية، وعلى رأسها رابطة أهل البيت القادرية، وهي امتداد حي لجمعية الإمام المرتضى المذكورة، ويشرف عليها حاليًا المدعو: سينان سيدوش، وهو كردي يدَّعي نسب آل البيت، ويعمل لصالح حزب العمال الكردستاني، وكوادره في جبال قنديل، ولهم صلة قوية جدًا بالتشيع والتصوف، فحافظ الأسد وزعيم الحزب الكردي عبد الله أوجلان كلاهما علويان نصيريان، ومتعصبان لمذهبهما، وإن كانا يتظاهران بالعلمنة والديمقراطية، ولذلك نشط التشيع بشكل خفي في مناطقهما في سوريا قبل التحرير وبعده، ورابطة آل البيت الحالية تتبع لمؤسسة الإسلام الديمقراطي التي تعمل تحت مظلة الحزب.

٧ - مقال: إضفاء الطابع الشيعي على أسماء مساجد ومدارس شرقي دير الزور، عمر عبد الرحمن، وكالة نورث برس، ٢٠٢١/١٢/٦.

٨ - ملف: التشيع في دير الزور، مراحل التشيع منذ البدايات وحتى الوقت الراهن، ص ٢٤؛ مقال: دراسة تسلط الضوء على حملات التشيع في دير الزور، زمان الوصل ٢٠٢٠/٣/٢٦.

٩ - خريطة التشيع في سوريا، مركز حرمون، ص ٣٣.

١٠ - مقال: مزارات وأضرحة شيعية جديدة في دير الزور، شبكة المجلس الإعلامية ٢٠٢١/١٢/٢٩م.